الأدب العراقي في حاضره الراهن

الأدب العراقي في حاضره الرّاهن؟

إنّ المشهد لواسع وكبير، ومن الصّعوبة جمعه والتعبير عنه في نطاق محدود. . . ولكنّها مغامرة تخوضها «الآداب» وأخوضها معها في هذا الملف الذي نحاول فيه أن نُقدّم ولو مقطعاً عرضيّاً من المشهد الثّقافي الرّاهن في العراق، ممثّلاً بنماذج قد لا ترسم الصّورة الكلّيّة لهذا الواقع، بكلّ ما فيه من منجزات وبجميع ما له من تفجّرات؛ فهو كبير، ومزدحم يغصّ بالأسماء، ويشهد تحوّلات في التجارب والتوجّهات. . والادّعاءات أيضاً.

إلاّ أنّ ما نتصوّره، ونراه في مثل هذا الظرف الإنساني والثّقافي الحرج هو أنّ تقديم الجزء خير من إغفال الكلّ ـ ولعلّ في المادّة المتبقيّة لدى «الآداب» ممّا يمكن أن يظهر في أعداد لاحقة، ما يمكن أن ينمّي «المشهد» ويظهره بالصّورة الأقرب إلى واقعه وحقيقته.

هذا ما ينبغي أن نقوله ابتداءً.

ثمّ لابدّ من انعطاف نحو «التجربة ـ المسار» التي نحاول معاً، أنا و«الآداب»، أن نتبيّن معالمها الأساسيّة من خلال هذا الملف، في بعض إشارات أُريدها مدخلاً لقراءته:

فنحن إذْ نتكلّم على «أدب عراقي» بمعنى روح التّجديد فيه، إنّما نتكلّم على جيلين أساسيّين في هذا الأدب وهما: جيل الخمسينات الذي مثّل الريادة التجديديّة فنيّاً وموضوعيّاً؛ وجيل الستينات الذي مثّل تحوّلاً مهمّاً وأساسيّاً في الفكر التجديدي بما اتّخذ من توجّهات، وقدّم من منجز فنّي له اليوم وضوحه. . . هذا، دون أن نهمل الإشارة إلى ذلك «المشترك العام» في صياغة فكر الجيلين. . . وأعني بذلك: التحوّلات في الواقع والوعي التي شهدتها المرحلة بعقديها الخمسينيّ والسّتينيّ. . وسيادة «النّزعة النقديّة» بفكرها الثّوري أو المتمرّد.

وإذا كان «أدب الخمسينات» قد تميّز بتلك النّزعة الرّاديكاليّة الثّائرة على الرّوح الإصلاحيّة في بعض من منازعها. . . فإنّ «أدب السّتينات» قد تميّز بنزعة رفضيّة واضحة، وواعية لعملها أيضاً ـ هي من قبيل «الرفضيّة التمرّديّة» التي اتّصلت بعض تيّاراتها بما ساد المرحلة من ثوريّة متطرّفة وأخرى عدميّة، لعلّ سببها الأساس هو: فشل المؤسّسة السياسيّة أمام طموحات هذا الجيل، الفرديّة والكبيرة بآن معاً، التي كان تشكيلها الرّومانسي عندهم، في إطار الفكر ونطاق الرّوح، أكبر من تشكّلها الواقعي أمامهم في مجالات السّياسة ـ التي صدمتهم توجّهاتها الغريبة وغير المستقرّة.

وإذا كان همّ الجيلين، الخمسينيّ والسّتينيّ، هو الوصول إلى أُسلوب متميّز في لغته، فإنّ بحثهما عن موقف متميّز، فنيّاً وفكريّاً، هو النظير الآخر عندهما لهذا البحث. ولعلّ الخاصّيّة المهمّة في فكر الجيلين هي أنّهما نظرا إلى العالم في وجوده متحرّكاً، ـ وهذا ما دفع أفكارهما (وأساليبهما الفنّيّة أيضاً) إلى طريق التطوّر الدّائم الذي كان في حياة بعض من أبناء السّتّينات أقرب إلى «التجريبيّة المستمرّة» التي لم تمنح، هذا البعض، ما يمكن أن يُعدّ استقراراً.

ولكن لابدّ من إشارة تميّز هنا:

فالصّراع الذي خاضه «الستّينيّون» كان صراعاً أعمق تناقضاً مع الذّات، وأكثر عنفاً في مواجهة الواقع (الفكري والثّقافي بالذّات). فقد كانت هناك نزعة تدميريّة، أقرب إلى العدميّة، رافقت موقف البعض، لتشمل اللّغة والأشكال والتّراث وجميع «الثّوابت». وكان بعض الستينيين (نتيجة للخيبة والإحباط السّياسي) يحمل صراعه هذا على محمل اغتراب الذّات عن مجتمعها ـ في انغمار أعمق وأكثر كثافة من ذلك الذي عرفه بعض الخمسينيّين متأثّرين بالتيّار الوجودي في الثّقافة الإنسانيّة. فقد أصبح هناك شكّ في مواجهة اليقين الذي اتّخذ مساره كثير من أبناء الخمسينات (بحكم انتمائيّتهم)؛ وأضحت علاماتُ الاستفهام والتعجّب تقف، بشكل أكثر تأكيداً ووضوحاً، عند نهايات العديد من تلك الأسئلة الحائرة التي كان أبناء هذا الجيل الستّينيّ يطرحونها على أنفسهم في مواجهة واقعهم والعالم. . .

* * *

وللستّينات ما بعدها، وهو ما نضعه في سياق هذه «الجيليّة المتعاقبة»

ماجد السامرائي

وإذْ نتّخذ للحديث مثل هذا المسار، فإنّ ما ينبغي الاعتراف به، هو أنّنا نتحدّث عن جيلين أيضاً (الستّينات، وما بعدها..) عاصرا أصعب مرحلة في تاريخنا المعاصر. فقد عصفت بحياتهما من الخيبات والحروب ما لا يبيح لمؤرّخ الأدب أن ينظر إليهما خارج ما حدث.. بل يجد نفسه في قلب ذلك العالم الذي تطفر منه رائحة الموت.

لقد كانت صدمة الواقع بالنّسبة للجيلين أكبر من كلّ تلك الالتزامات الإنسانيّة التي يقول بها «الموقف الأخلاقي» الذي هو، في معظم الحالات، موقفٌ امتثاليّ يجد فيه «السياسيّون المحترفون» ضالّتهم المنشودة فيطرحونه على الآخرين ـ كما يريدون له أن يتمّ. وهذا بالذّات هو ما يجعلنا نفهم لماذا رفض جيل الستّينات الالتزام بالمعنى الذي درجت فيه الكتاباتُ السياسيّة أو المسيَّسة... ولماذا لم يقتربْ جيل ما بعد الستّينات من مناقشة هذه الفكرة أساساً، ولا وقفت به رغبة عندها.

إلاّ أن الفارق بين الجيلين هنا هو: أنّ الأوّل منهما (جيل السّتينات) عمد إلى اتخاذ موقف نقدي، صريح وضمني، من الأفكار والنظريّات التي كان يلتزم بعضَها ويقول ببعضها الآخر.. بينما نجد الجيل الآخر (ما بعد الستّينات) لم يُكوِّن وعياً، ولا بنىٰ وعيه هذا من خلال نظرية أو موقف فكري ـ بالمعنىٰ الذي هو عليه عند جيل الخمسينات وجيل الستّينات ـ بل سنجده يزجّ نفسه، بصورة مباشرة، في ما يمكن اعتباره «عدمية فكرية» كثيراً ما قادته إلى طريق من عدمية الرّؤية/ الرؤيا، وعدمية اللغة/ التعبير.. فإذا هو لا يستطيع أن يعرّف نفسه بكلماته هو ـ ومن هنا جاءت استعاراته لكلمات «الآخرين» للتعبير عن هذه الذات المتمزّقة بين واقعها وطموحها.. وبين «الانتماء إلى الذات» و«عناصر الاستلاب» الكثيرة التي تحيط بها.

ولكن هذا ليس حكماً عاماً، ولا يمكن أن يكون. فقد تجد نفسك وأنت تقرأ غير واحد من أبناء هذا الجيل (في الشعر والقصة تحديداً) وكأنه يقول لك: إنّ الأرض ما خُلِقت لتكون مقبرة... ولذلك فهو يبحث في نفسه، وفي بقايا الواقع والذاكرة عمّا يسدّ جوعَه الإنساني.. أو عمّا يواجه به العالم الذي ينصب له فُخوخ الموت... وإن كان البعض، حتى في هذا، وصلوا إلى ما يمكن اعتباره «بُعداً مظلماً»..

إنّ العديد من «الكلمات» التي كانت تعني شيئاً لـ«جيل الستّينات» وما قبله، لم تعد تعني شيئاً لدى أبناء هذا الجيل اللاحق الذين تجدهم يتنازعون حتى مع أنفسهم، ويعتنقون من الفلسفات ما قد نجد فيه تفكيكاً للحياة الإنسانية؛ فهم يسعون إلى «اكتشاف العالم» قبل تحقيق اكتشافهم أنفسهم.

لم تعد كلمة «ثورة» تعني لهم ذلك المعنى الكبير الذي كان سابقوهم يحشدون داخله عملهم التجديديّ كلّه.. وكذلك كلمة «تمرّد» التي مثّلت خروج الذات على مألوف العبارة وحالات الامتثال. فهو «جيل» لم يذهب إلى ما قبله كثيراً، لأنّ ما رآه أمامه وعاناه جعله لا يفعل ذلك. إنّه يغتاب أيّامه، وينظر إلى المستقبل، مترقّباً، بقلب جريح. أمّا عينه فقد احتشد فيها الخوف أو تكثّفُ الصمتِ (لهول ما رأتْ). وإذا كانت ذاكرته لا تغضّ من قيمة الماضي، فإنه لا يرغب في استعادة شيء من ذلك الماضي، بل يحاول أن يخلق فنّه: مأساوياً، ساخراً، أو ناضحاً بالمرارة.. عدمياً في أكثر من مستوى. ولذلك تجدهم يتميّزون باحتقارهم الوحشي للأشياء.

وهو جيل يكتب بلغة استبدادية. فهو يعيش في عالم مرفوض منه!؟ (ماذا يريد؟ وإلى أين يمضي بخطواته؟ ذلك ما يخيف.. لأنّه يطرح قضيّة ضياعه إنساناً من جانب، وسهولة انقياده من جانب آخر. فالفراغ، الذّاتي لا الوجودي، الذي يعيشه لا يسلمه إلاّ إلى ما ينفتح أمامه، حتى لو كان «حفرة» قد تتحقّق فيها نهايته..).

إنّهم يحاولون الاقتراب ممّا يدعوه بعض شعراء عصرنا بـ«المعرفة المحظورة»، ولكنّهم لا يمتلكون من مستلزماتها شيئاً!

* * *

وبعد، فإنّ هذا الملف الذي تفرده «الآداب» من صفحاتها لهذا الأدب قد لا يمثّل الصورة كاملة، وإن كان ينقل شرائح منها.. وربّما يكون في نتاجات أُخرى، لم تستوعبها الصفحاتُ المخصصة، ما يكمل عناصر الصورة ـ وهو ما أرجو أن تتّسع له صفحات الأعداد المقبلة من «الآداب».

بغداد

(*) لا بدّ هنا من الإشارة إلى أن الكاتب العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي قد زوّد المجلّة ببعض موادّ هذا العدد الخاصّ (التّحرير).